العلاقات الإسلامية المسيحية
ثقافة الجدل وثقافة الحياة

رضوان السيد

I

ظهر الإسلام في فجر القرن السابع الميلادي في بيئاتٍ مسيحيةٍ ويهوديةٍ ووثنية. وفي حين كانت الوثنية العربية أدنى إلى أن تكون أعرافاً للعيش والاستمرار؛ فإنّ المسيحية واليهودية كانتا دينين وثقافتين لا تقتصران في الوجود على شبه الجزيرة العربية، وإن طبعت الجزيرةُ مسيحييها ويهودها بطابعها الخاصّ. وما كان لليهودية اجتماعٌ سياسيٌّ محدّدٌ في الجزيرة أو خارجها. أما المسيحيةُ فكانت لها إمبراطوريتها العالمية التي عرفها العربُ في الدولة البيزنطية، وفي الدويلات العربية التي اعتنقت المسيحية على أطراف الجزيرة وفي داخلها.

وفهم الإسلامُ نفسه منذ اللحظة الأولى باعتباره دعوةً عالميةً تشكّل استمراراً لليهودية والمسيحية، اللتين أراد منهما الاعتراف به، أو أنه أراد مزاملتهما على قَدَم المساواة في نطاق الميراث الإبراهيمي لدعوة الله ودين الله. وفي حين قابلت اليهودية الإسلام منذ البداية برفض الاعتراف به ديناً توحيدياً جديداً، فإن ردود فعل المسيحيين اختلفت وتباينت لعوامل عدة؛ أهمها أنَّ المسيحية نفسها ما كانت موحدةً داخلياً؛ بل كانت الكنائس والتقاليد المسيحية ـ حتى داخل الجزيرة ـ متباينة ومختلفة.

فقد كانت هناك الكنيسة الأرثوذكسية، كنيسة الدولة السائدة: الدولة البيزنطية. وكانت هناك الكنائس السريانية الشرقية والغربية (النساطرة واليعاقبة

وفيما بعد الموارنة) التي تُبادل الأرثوذكسية العداء، وتمضي أحياناً إلى حدّ مبادلة الدولة البيزنطية العداءَ أيضاً، واللجوء إلى أعدائها الفرس الزرادشتيين. على أنّ تباين ردود الفعل على ظهور الإسلام وانتشاره لم يعن وقتها أن بعض الكنائس اعترفت به، وبعضها الآخر قاومه؛ بل إنّ الذي حدث أنّ السريان على اختلاف تلويناتهم رأوا في الإسلام سوطاً من سياط الله سلّطه على البيزنطيين الذين انحرفوا عن الدين الحقّ؛ في حين أنّ الأرثوذكس اتجهوا لاعتباره انقساماً وانشقاقاً. فهناك ما يشير إلى أنّهم حاولوا بدءًا فهم الإسلام باعتباره واحداً من الهرطقات الكثيرة التي حاولت تدمير الكنيسة الجامعة منذ القرن الثالث الميلادي.

جرت هذه التطورات والرؤى في فترةٍ زمنية قصيرةٍ نسبياً تمتد من وفاة الرسول (ص) عام 632م وحتى فتح المسلمين لأسبانيا في الربع الأول من القرن الثامن الميلادي. وقتها كان العربُ الذين اعتنقوا الإسلام يندفعون من الجزيرة ليقتحموا العالم المعمور ويُخضعوه لسيطرتهم السياسية، التي فهموها في انسياحهم الأول باعتبارها «خلافة الله»، وإخراجاً «للعباد من عبودية العباد إلى عباد ربّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام». وفي تاريخ الطبري ما يفيد أنّ هناك تصوراتٍ كانت منتشرةً بين العرب المسلمين في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي على الأقلّ ترى أن النبوة والمُلك كانا في بني إسرائيل ثم افترقا فبقيت النبوة فيهم، وانتقل المُلْك إلى أعقاب «يافث» بن نوح من الفرس والروم إلى أن بُعث محمد (ص) فاجتمع في أمته ولأمته النبوة والمُلْك.

فإذا كان الإسلام قد بدا للمسيحيين، والمسيحيين العرب، بالذات، في البداية، بوصفه هرطقةً، تقاوَم أو يُتحالف معها، حسب العلاقة التي لجماعاتهم الخاصّة مع السلطة المركزية البيزنطية، وحلفائها من أمراء العرب؛ فإنّ التحول السريع للإسلام إلى إمبراطوريةٍ هائلةٍ فرض موقفاً جديداً ما كانوا مستعدّين لمواجهته. وهم عندما واجهوه، واجهوه بوصفهم عَرَباً بدواً أو حَضَراً، حاولوا، وبأشكالٍ متنوعةٍ التلاؤم مع المسلمين أو «الروم» حسب

قُربهم أو بُعدهم من خطوط المجابهة بين الدولتين، وحسب علاقاتهم المتوارثة ببيزنطة. وهكذا فإنَّ الإسلام تحول سريعاً خلال النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، في نظر المسيحيين العرب وغيرهم من معتَقَدٍ لجماعةٍ جديدةٍ على أطراف إمبراطوريتي فارس والروم، ليست هناك ضرورات وجودية للتصدّي له إلى دينٍ لإمبراطوريةٍ ضخمةٍ سحقت الدولة الساسانية ـ التي كانت تُؤوي تحت جناحها الغربي جماعاتٍ مسيحيةً كبيرة ـ وأَرغمت البيزنطيين على التراجع منتزعةً منهم مصر والشام وإفريقيا الشمالية، وأجزاء من آسيا الصغرى. وفي مطالع القرن الثامن الميلادي، امتدت السيطرة الإسلامية إلى أسبانيا المسيحية، كما استطاع الفاتحون المسلمون أن يثبّتوا موطىء قدم في الجزر الإيطالية، محوِّلين بذلك البحر المتوسط تدريجياً إلى بحيرة إسلامية.

وتدل الأدبيات التاريخية والنشورية لدى السريان والبيزنطيين في القرن السابع ومطالع الثامن أنهم كما سارعوا إلى اعتبار الإسلام هرطقةً سهلة العلاج، أو سوطاً من سياط العقاب الإلهي، سُرعان ما يزول بعد أن يُحدِثَ الأثر المرغوب؛ سارعوا إلى اعتبار جند المسلمين، ودولتهم التي بدأت تتكوَّن غارةً من غارات الأعراب التي اعتادوا عليها، صحيح أنها تميزت ببعض الطول، لكنها ستنحسر حتماً كما تدفقت فجأة. ومضت عقود القرن السابع، وبدأ النظام الجديد يستقرُّ، وازداد البيزنطيون ابتعاداً، وما استطاعوا العودة حتّى إبان اندلاع الحربين الأهليتين المعروفتين في تاريخ الإسلام الأول. فبدأ رجالاتُ الكنيسة الباقون، يعيدون النظر في رؤيتهم للإسلام/ الدين، والإسلام/ الدولة، كما سبق للفلاّحين، وعامّة الناس أن فعلوا منذ أن تغلغل المسلمون في مدنهم وقُراهم.

أجرى الفاتحون عقود صُلْح متشابهة مع المدن التي فتحوها واحدةً بعد الأخرى. أمَّا الأرض فقد وضعوا عليها خراجاً أفادوا في مقاديره مما كان معمولاً به في الدولتين الساسانية والبيزنطية. وما كان التمايُزُ واضحاً في البداية بين ضريبة الرؤوس (الجزية) والخراج (ضريبة الأرض)، ثم صار كلّ شيءٍ واضحاً منذ أيام عمر بن عبد العزيز (99 ـ 101هـ) فيما يبدو. وتعامل الفاتحون في الإدارة المحلية، والمركزية، مع ذوي الخبرة من سكان البلاد

المفتوحة الذين قبلوا التعاون معهم، وهم الغالبية، فما أحسَّ سكان تلك البلاد بفوارق كبيرة في البداية على الأقل، أو أنَّ نمط عيشهم ما خالجه انقلابٌ مفاجىء. وأسرة يوحنا الدمشقي شاهدٌ بارز على ذلك. فقد عمل جدُّهُ في الإدارة البيزنطية، ووالده من مخضرمي العهدين، وعمل هو نفسه في الديوان الأموي أكثر من عقدين من الزمان قبل أن يعتزل في دير مار/ سابا بالقدس.

وهكذا فإنه بعد أن استقرت الأمور للفاتحين بين 650 و700م بدأت حياةٌ جديدةٌ تظهر تدريجياً، وفي بلاد الشام، بشكل أسرع منها في إيران أو مصر وغيرها من البلدان المفتوحة، بسبب العروبة التي كانت معروفةً في بعض النواحي، وغالبة في نواح أخرى. ويرجع ذلك لعدة أسباب: **أولُها**: سرعة نموّ الإحساس لدى العرب بالذات والدولة، مما دفعهم للإصغاء لضرورات ذلك الروح الجديد دونما خوفٍ من ضعف أو زوال (المعاملة الخاصة لمسيحيي بني تغلب والعرب)، والانصراف الهادىء لتطوير تقاليد دولتية خاصة بهم (تعريب الدواوين، سكّ النقود، إصلاح النظام الضريبي). **وثانيها**: ركون فئات شعبية كثيرة إلى السادة الجدد، إمّا لأنهم عرب مثلهم، وإمّا لفقد الأمل بعودة السادة القدامى، والإحساس بأنّ الحياة والمصالح لا يتهدَّدها العهد الجديد، والمشاركة أحرى بحفظ الحقوق، من السلبية أو المقاومة. **وثالث** تلك الأسباب وأهمُّها انفتاح الإسلام، ونزعته العالمية، وأبواب الأمة المشرعة لكل مُقبلٍ، مما أدَّى إلى تغيُّر اجتماعيٍّ زاخر وسريع، ضرب محاولات الدولة المتكوِّنة لاحتكار السلطة عن طريق احتكار الدين. لقد كانت تلك عمليةً تاريخية هائلة أسقطت الدولة الأموية (دولة الفتح والاستيلاء)، وغيَّرت من فهم العرب أنفسهم للإسلام وموقعهم فيه، كما غيَّرت وضربت المجتمع الطبقي الإيراني، وهرميات المجتمعات المسيحية، وأسست لتمايز الدين عن الدولة في الإسلام الوسيط؛ وذلك عبر قرن ونصف فحسب. لكنَّ لذلك حديثاً آخر ليس هنا موضعه.

إنّها ثقافة الحياة، صنعتها التجربة العربية الإسلامية للاستيعاب والانصهار في الوقت نفسه.

II

ويبقى أنَّ لأمر الحياة الجديدة تلك ـ ومن ضمنها حياة المسيحيين والمسلمين ـ وجهها الآخر أو وجوهها الأخرى التي لا ينبغي ولا يصحُّ تجاوزها إن أردنا أن نفهم الأمور بطريقة شمولية. فقد شكّل الإسلام/الدين، والإسلام/الدولة، تحدّياً كبيراً وبالمعنى العميق لسائر أبناء البلاد المفتوحة، والمسيحيين منهم على وجه الخصوص. صحيح أنَّ المسيحيين السريان ما كانوا يدينون بدين السائدين في إيران الساسانية، وبيزنطة الأرثوذكسية. لكنّ أديرتهم، ومؤسساتهم الدينية/الاجتماعية عانت الأمرَّين من الصراع الساساني/البيزنطي بين عامي 602 و629م. وعندما دخل المسلمون ديارهم عام 635م ما كانوا قد وجدوا فرصةً لالتقاط الأنفاس، وما استطاعوا مقابلة السادة الجدد بشكلٍ منظّم وموحّد من الناحية الدينية، سواء أكانوا من السريان الشرقيين (النساطرة) أو الغربيين (اليعاقبة). أما الأرثوذكس، فإنّ نُخبهم غادر كثير منها مع البيزنطيين، تاركين وراءهم جماعات مشرذمة لا تدري كيف تتصرف في ظل الظروف الجديدة. هذه الجماعات المجرّدة من قسم كبير من نُخَبها، واجهت من جهة أخرى فاتحين لا يملكون خططاً بعيدة المدى، أو تصوراً واضحاً لطرائق إدارة الدولة وتنظيمها. وقبل ذلك وبعده ما كانوا ـ باستثناء نصّ الجزية ـ يدرون كيف يتعاملون معهم من الناحية الدينية. وقد توصلت تلك الأطراف لإقامة علاقاتٍ فيما بينها بدافع ضرورات العيش والاستمرار من جهة المسيحيين، والمصلحة من جهة المسلمين. بيد أنّ تلك الجماعات كانت تواجه خطراً ماثلاً في الفاتحين الجدد، خطراً على هوية الجماعة ودينها وتماسكها. كان السريان الريفيون في الغالب أقلّ تماسُكاً من الأرثوذكس المدينيين، وأكثر ترحيباً بالمسلمين. لكنهم كانوا من جهةٍ أخرى أقلّ تماساً بهم. أما الأرثوذكس فرغم ولائهم للدولة البيزنطية، ولكنيستها؛ اضطرّوا للتعامل والتعاون مع المسلمين منذ البداية. فقد احتاجوا إليهم في الإدارة، واحتاجوا إليهم في البناء، واحتاجوا إليهم في التعرف على البلاد. وكانت الكنيسة القبطية المصرية على عداءٍ مع البيزنطيين، بيد أنّ الإدارة في المدائن والقرى كانت بيد موظفين يدينون للبيزنطيين بالولاء. ومع ذلك، فقد فرضت

ضرورات العيش تعاملاً وتعايشاً وتعاوناً.

انصبّت جهود رجالات المذاهب المسيحية على اختلافها على محاولة إعادة التماسك إلى تلك الجماعات، من أجل حفظ هويتها، والتعامل مع الفاتحين في دفع الضرائب، والإدارة، لا في الدين. وما كان ذلك صعباً في البداية، لأن الفاتحين ما اظهروا حماساً في دعوة النصارى إلى دينهم. وبدأت ترسو أعراف تترك لتلك الجماعات إدارة شؤونها الخاصّة برئاسة رؤسائها الدينيين، وبعض الوجهاء، المتعاملين مع الإدارة. لكنّ الدين الجديد بدا جذّاباً ببساطته، وبقوته الظاهرة وبمشابهته للمسيحية في كثير من الأمور. وبدا من ناحية أُخرى توقُ المسلمين الشديد ليعترف بهم المسيحيون ديناً مستقلاً، كما اعترف بهم الإسلام باعتبارهم أهل كتاب.

ورغم أنّ الاختلافات اللاهوتية حول مفهوم التوحيد، وعلاقة الإنسان بالله وبالعالم كانت كبيرة، فإنّ المسلمين كانوا مستعدين لتجاوُزها مقابل الاعتراف بنبوة النبي محمد (ص) من جانب المسيحيين. أما المسيحيون فقد كانوا على استعدادٍ لتنازلاتٍ كبيرة في شتّى المجالات إلاّ في هذا المجال، لأنّ ذلك يعني إلغاءَهم. ذلك أن الاعتراف بنبوة النبي (ص) وهو في نظر نفسه وأتباعه والقرآن خاتم النبيين، وناسخ الرسالات السابقة، يعني انتقالاً من المسيحية إلى الإسلام.

ومع ذلك فالذي يبدو من فصل يوحنا الدمشقي ضد الهراطقة ورسالته في الجدل بين مسلم ومسيحي (مطلع القرن الثامن) وأعمال تيودور أبو قرة (مطلع القرن التاسع)؛ وكلاهما من الأرثوذكس؛ أنَّ كتابات المسيحيين اللاهوتية كان هدفها تجديد الحياة الدينية المسيحية، ولـمّ شتات الجماعات المسيحية، وإعادة تأكيد الوعي بالذات؛ كُلُّ ذلك لمواجهة الموقف الجديد، في ظل الفاتحين الجدد، والدين الجديد المنتصر. فما كان يخيفهم على المسيحية والمسيحيين بدءًا ليس الدين الإسلامي بالضرورة، الذي كانوا يُحسون بتفوقٍ هائل عليه من الناحية اللاهوتية البحتة، بل السيطرة السياسية للعرب المسلمين، وانحسار السيطرة السياسية المسيحية التي كانت تمثلها الإمبراطورية البيزنطية. وفي هذا الإطار ينبغي فهم الجداليات المسيحية المبكّرة مع

الإسلام. فالواضح أنهم ما كانوا يطمحون إلى ردِّ العرب عن دينهم (كانت أكثر الكتابات المسيحية ـ حتى ما كان منها ضدّ الإسلام ـ باليونانية والسريانية)، بل كانوا يرمون إلى صون الجماعات المسيحية، وتجديد وعيها وحياتها، في ظلّ الظروف الجديدة. بيد أن الأرثوذكس بالذت، الذين بادروا إلى الكتابة في العهد الجديد، سرعان ما انهمكوا في جداليات لاهوتية داخلية أجهضت إلى حدٍّ بعيد، قدرتهم على توحيد الوعي الأرثوذكسي وتجديده. إذ نشب النزاع حول الصُور والتماثيل والإيقونات عندما دعت كنيسة القسطنطينية إلى تحطيم ذلك كلِّه في عهد الإمبراطور ليو الثالث (717 ـ 741م)، وعقدت مجامع كَنَسية، وأرسلت مُرسلين إلى سائر النواحي المسيحية (بما فيها تلك الخاضعة للسيطرة الإسلامية) لإنفاذ قرارات الإمبراطور والمجامع الداعمة. واستمرّ النزاع حول المسألة حوالي المائة عام (منذ الرُبع الأول من القرن الثامن وحتى الربع الأول من القرن التاسع). ومن المعروف أن كبار اللاهوتيين الأرثوذكس في ديار الإسلام (ومن ضمنهم يوحنا الدمشقي وتيودور أبو قرّة أول كاتبٍ بالعربية) وقفوا ضد تحطيم الصور والتماثيل والإيقونات. وصدرت ضدّهم قرارات من جانب الأباطرة المتعاقبين في الأسرة الإيسورية، ومن المجامع التي عقدت برئاسة أولئك الأباطرة. وكان من نتائج ذلك إضعاف وحدة الكنيسة الأرثوذكسية. وما عانى السريان من المشكلة نفسها، لكنهم كانوا منقسمين إلى نساطرة ويعاقبة. وانهمك رجالات الكنائس السريانية في نزاعاتٍ داخلية على المناصب، سمحت للإدارة الأُموية والعباسية بالتدخل في شؤونهما الخاصّة مما زاد في إضعاف وحدة الجماعات المنضوية، وأثّر في أدبياتها التي استمرت تمضغ «تاريخ الهداية» في حولياتٍ ذات طابع نشوريٍّ وعجائبي.

وما أسهم الموقف البيزنطيُّ، الموافق للموقف الإسلامي في مسألة تحريم الصُوَر، في تقارب لاهوتيٍّ بين الديانتين، لأنَّ الأقسام الخاضعة من الأرثوذكسية للسيطرة السياسية الإسلامية ما تحمّست له. بيد أنَّ الجدل المسيحي الأرثوذكسي لدى العرب منهم ما ماحَكَ الإسلام في هذه النقطة وحسب (بحجّة أن الضلال البيزنطي فيها تسبب به الإسلام)، بل واجهه في عدة مسائل مهمة أخرى، مثل مسألة القضاء والقدر (حرية الإرادة)، ودنيوية المسلمين، وعقائد القرآن، ونبوة

محمد (ص). ويريد الباحثون المُعاصرون أن ينسبوا لهذا النوع من الجدل (وفي مسألة حرية الإرادة بالذات، وطرائق الجدل) دوراً مهماً في نشأة علم الكلام الإسلامي.

وهناك روايات ونصوص وقصص كثير عن بدايات الجدل من جانب المسلمين في القرنين السابع والثامن الميلاديين. أما النصوص الباقية، والتي تبدأ من القرن التاسع وتستمر حتى اليوم فتجادل المسيحية في مسائل أخرى هي من أساسيات العقيدة المسيحية لدى سائر المسيحيين، وليس لدى فرقة منهم بالذات: الوحدانية والتثليث، ألوهية المسيح، الصلب والفداء، وتحريف الكتب المقدسة. والملاحظ أنّ معرفة الجدليين المسلمين بالمسيحية كانت أفضل بكثير من معرفة جداليي المسيحية بالإسلام. لكنَّ تلك المعرفة الدقيقة من جانب المسلمين بالنصوص والعقائد المسيحية ما قادت إلى تفهم أفضل للنصرانية العربية والعامّة. فقد ركَّز المسلمون على النصوص، بينما جوهر المسيحية حتى اليوم شخص المسيح، وتجربته، ومعاني تلك التجربة على اختلاف تعبيرات النصوص عنها. وكما أن جداليات المسيحية ضد الإسلام ما قادت المسلمين أو بعضهم إلى اعتناق المسيحية؛ فإن العكس لم يحصل أيضاً. بل إن الحياة المشتركة، وانفتاح الإسلام، وطول السيطرة الإسلامية؛ كل ذلك؛ هو الذي حوَّل الإسلام إلى دينٍ للأكثرية السكانية بالمنطقة. وليس من المفيد ذلك الجدل الدائر في أوساط الدارسين منذ عقود، والذي يريد أن ينسب التحول التدريجي إلى الإسلام، لسيطرة المسلمين أو ضغوطهم وحسب. ولا يقلل المرء من حيوية المسيحية العربية عندما يذهب إلى أن **الحياة الإسلامية** الغنية والشاسعة هي السبب الرئيسي لاستتباب الأمر للإسلام في النهاية. أمّا «المسيحية العربية» والمتعرّبة فما كانت أقل صلابة، بدليل استمرار المسيحيين العرب حتى اليوم، وإن قلّت أعدادهم. وعاشت النُخَب المتجادلة بعضها مع بعض عبر العصور في الحواضر الإسلامية، وأنتجت علمياً وثقافياً وفلسفياً تُراثاً سمتُه الرئيسة الإصغاء لمتطلبات الحقيقة العلمية والمُزاملة، وتسليم سائر الأطراف بحق الجميع في الاستقرار والاستمرار.

* * *

بدأنا بالتحضير لهذا الملف بمجلة **الاجتهاد** قبل سنتين. وكانت تشغلنا وما تزال هموم: همُّ التعرُّف على التجربة التاريخية لأمتنا على اختلاف الأديان، وتقلبات الظروف؛ وهمُّ معرفة «المسيحية العربية» التي تركت تُراثاً هائلاً في شتّى المجالات؛ وهمُّ تعريف المسلمين بالمسيحية المعاصرة في مختلف بيئاتها، وبيئاتها المشرقية والعربية بالذات. وقبل ذلك وبعده: همُّ الإصغاء لضرورات العيش ومتطلباته في بيئاتنا العربية والإسلامية، وبيئات العالم الأوسع، وهمُّ تجديد الوعي بسعة الإمكانات والإمكانيات. ولذا فستتلو هذا العدد أعدادٌ أُخرى ترقُبُ الماضي والحاضر والمستقبل بعيون الحاضر وهمومه.